الفصل الثالث

المحاكم والقضاة

ومنشؤهم فى الدولة العثمانية وعهد الفاتح

كان لا بد من أن نلمّ بالقضاء ونبين أهميته فى الاسلام والمراحل التى مرت به لكى نفهم محاكم الدولة العثمانية وتشكيلاتها فانها كانت دولة اسلامية سارت فى شئونها كلها على المنهج الاسلامى وتأسست محاكمها على الاسس الاسلامية سواء من ناحية التشريع او التشكيلات كما هو الشأن فى سائر الدول الاسلامية مثل الامويين والعباسيين وأحسبنى قدمت فكرة ، ولو اجمالية ، فى هذا الصدد بما أسلفته من البيان .

كانت نظرة المسلمين الى شريعتهم نظرة إجلال وتقديس وفكرتهم عن أحكامها المدونة فى الفقه فكرة امتزجت بالعقيدة الدينية ورسخت فى قلوبهم واستولت على ضمائرهم ومشاعرهم . وأما شريعتهم التى نظروا اليها هذه النظرة واعتقدوا فيها هذه العقيدة فكانت من سعة الدائرة وشمول أحكامها المستندة الى الحق والعدل بحيث تجيب جميع مطالب الحياة الاجتماعية وتحل كل المشاكل التى تحدث فى المجتمع وتصلح لكل زمان ومكان ولا تدع حاجة الى البحث خارج دائرتها الواسعة عن شيء آخر يحقق العدل والحق .

وبهذا الشعور والايمان كان الجميع حتى الخلفاء والملوك يقابلون أحكام المحاكم بالسمع والطاعة والترحيب وعن طيب الخاطر . وكان الكل : الغنى والفقير ، القوى والضعيف يجدون أمامها المساواة التامة .

ويتمثل شعورهم هذا فى مثلهم القائل : « لا تتألم الاصبع التى تقطعها الشريعة » .

وبمثل هذه الروح ، وفى جو من هذه الثقة إبتدأ السلطان عثمان الغازى بانى الدولة العثمانية عمله بتعيين قاض قبل كل شىء وجعل سلطة الدولة القضائية تعمل وتنشط وكان اول قاض ولاه هو الفقيه طورسون[1] .

وكان لابد من أن تكون هذه السلطة فى أيد نزيهة ذات كفاءة حتى يمكن اجراء القضاء فى الحدود التى رسمتها الشريعة الاسلامية وتتحقق العدالة اذ ليس من الممكن الوصول الى الغاية المنشودة باناس لا يدركون أهمية القضاء فى المجتمع ولا يفقهون روحه ، ومن أجل ذلك كانت هـــذه النقطة قد استأثرت بأكبر قسط من العناية والاهتمام .

وفى بداية قيام الدولة كان القضاة العثمانيون يختارون من العلماء القادرين على الاضطلاع بأعباء القضاء ممن نشأوا فى البلاد الاسلامية مثل الاناضول ومصر وسوريا وايران . هذا من جهة ومن جهة اخرى كان يفتح المدارس فى المدن الكبيرة مثل إزنيق (١) وبروسه لتخريج العلماء والقضاة . وبعدفتح

---

(١) هو من بلدة «قرمان» بالأناضول وصهر العالم الكبير والصوفى الشهير الشيخ إدبالى حمى السلطان عثمان . تلقى مبادىء العلوم فى المكاتب ثم قرأ على الشيخ إدبالى الحديث والتفسير والاصول والفروع فاستخدمه السلطان عثمان بعدوفاة حميها فى وظيفة التدريس والافتاء وعينه مستشاراً له يستشيره فى الشئون الدينية وسائر شئون الدولة الهامة . ونصبه قاضياً لقر حصار وأمره أن يخطبه باسمه .

تاريخ الخلفاء ج ١١ وتاريخ عاشق پاشا زاده

(١) اول مدرسة انشئت فى بداية الدولة العثمانية هى مدرسة « إزنيق» أنشأها السلطان اورخان الغازى لتخريج كبار العلماء والقضاة . وبالفعل قد تخرج فيها كثير من النوابغ منهم العالم الكبير خليل الاسود الچندرى .

استانبول اتسعت البلاد من جميع النواحى فتأسست امبراطورية عظيمة فاقتضى هذا الوضع الجديد الدولة مضاعفة العناية بشئون التعليم والقضاء فأنشأ السلطان محمد الفاتح مؤسسة علمية كبيرة فى عاصمة الدولة الجديدة (١) وكان ذلك سنة ٨٧٥ هـ وكان الغرض الذى يرمى اليه السلطان من إنشاء هذه المؤسسة تخريج علماء متبحرين فى العلوم كلها خصوصاً فى العلوم الدينية التى من أهمها الفقه .

وما كان يختار للتدريس فى هذه المدرسة الا علماء أجلاء واول من تولى التدريس فيها هو داود القيصرى ثم تاج الدين الكردرى وبعده علاء الدين الاسود . وكان السلطان اورخان يستفتيهم هم ورستم الاسود كلما دعته الحاجة الى الاستفتاء .

(١) يحدثنا التاريخ ان السلطان محمد الفاتح كان يطوف بالمدارس فى وقت متأخر من الليل ويتفقد الطلاب ليعلم المجتهد منهم وغير المجتهد فيكافئ المجتهدين . لم يعهد أن حاكما من الحكام بلغ به حب العلم هذا المبلغ .

ويروى أنه أراد أن يحصل على حجرة فى إحدى المدارس الثمان التى أنشأها فقال له ناظر المدرسة : عليك بالامتحان لتحصل عليها كما يقضى به شرط الواقف . فأداه بنجاح وحصل على الحجرة ويؤثر عنه انه قال حينئذ : « لتكن لى حجرة على الاقل أسكنها إذا خلعونى يوماً ما من الحكم » وكانت هذه الحجرة — على ما يروى بين الأساتذة والطلاب رواية تكاد تكون متواترة هى الحجرة الاولى الكائنة على يسار الداخل من باب المدرسة المعروفة بـ« باش قورشونلى » (= سرويلى) وهى إحدى المدارس الاربع الكائنة فى جهة البحر الاسود . وسنتكلم على هذه المدارس فيما سيأتى .

وكان رحمه الله يستقبل زواره فى هذه الحجرة كلما زار المدارس . وكان له فيها مقطة و « چكمجه » (*) مطعمة بالصدف وقد فقد هذا الاثر الثمين فى المدة الأخيرة

(*) هو صندوق صغير ذو أدراج من غير قوائم يستعمل كمكتب .

وقد أدرك محمد الفاتح أن لا سبيل إلى تحقيق هـذا الغرض إلا بكبار العلماء والاساتذة فاستقدم من البلاد الاسلامية الاخرى نوابغ العلماء مستعملا معهم جميع أساليب الاغراء والتشجيع وباذلا لهم ضروب العطف والتكريم حتى أنشأ فى عاصمة ملكه جامعة علمية كبيرة نموذجية .

وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى تحقق الغرض فنشأ عدد لايحصى من العلماء والفقهاء والشعراء ورجال الفن والأدب كما نرى أسماءهم فى كتب التاريخ والتراجم . والواقع أنه كانت هناك مكاتب ومدارس قبل الفاتح انشئت فى أنحاء البلاد من قبل الافراد والجماعات ولا سيما بطريق الوقف كما كان عدد لا يحصى من المكاتب والمدارس المتخلفة من الدولة السلجوقية والإمارات التى قامت على أطلالها . ولكن هذه المعاهد العلمية على كثرة عددها لم تكن كمدارس محمد الفاتح لا فى نظمها ولا فى أساتذتها الذين تولوا التدريس فيها .

فإن هذه المدارس بكبار أساتذتها وبرامجها الواسعة النطاق كانت تمثل جامعة علمية لم يكن لها مثيل فى أى مكان آخر (١)

هذا ؛ وقد انشئت عقب فتح القسطنطينية ـ وقبل إنشاء مدارس الفاتح ـ مدرستا «آياصوفيه» و«زيرك» واول من تولى التدريس بمدرسة «آياصوفيه» هو

---

(١) نعم إن المدرستين اللتين أنشأهما الوزير الشهير نظام الملك فى بغداد ونيشابور كانتا أكبر جامعتين فى العالم فى ذاك العهد وقد تولى التدريس فيهما أساتذة ذوو شهرة عالمية من أمثال أبى اسحاق الشيرازى وأبى النصر الصباح وأبى قاسم الدبوسى وأبى حامد الغزالى وفخر الاسلام الشاشى والامام السهروردى وكمال الأنبارى وامام الحرمين . وتخرج على أيديهم كبار العلماء والشعراء والمفكرين أمثال الشيخ سعدى =

المولى خسرو وكانت هذه المدرسة ينبوع علم فياض تفوق المدارس الموجودة فى ذاك العهد بفضل مدرسها ذلك العالم الكبير ومساعديه الأفاضل وقد احتفظت بمركزها العلمى الممتاز سنين عديدة الى أن تمت تشكيلات مدارس الفاتح .

يروى لنا التاريخ ان الفاتح كان يلاحظ من قصره القريب من مدرسة «آياصوفيه» أن احدى حجرها تظل مضاءة طوال الليل فسأل يوما عن الطالب الذى يسكن هذه الحجرة فعرف أنه محى الدين بن مفنيسا فكافأه على اجتهاده بأن اختاره فيما بعد مدرساً لمدرسة وزيره محمود (باشا) . وقد تخرج

= الشيرازى وقد تولى هو ايضا وظيفة الاستاذ المساعد . وكان يدرس فى هاتين المدرستين جميع فروع العلم والمعارف ويرحل اليهما عشاق العلم والمعرفة من كل جانب . ولكن مدارس الفاتح تفوقهما وأمثالهما بما لها من البرامج الواسعة النطاق والنظم الدقيقة فى امتحان الطلاب والتلاميذ .

ومدارس الفاتح وان كانت تذكرنا ماضيها المجيد بمبانيها الآيلة للخراب (*) ولكن النظامية قد أتت عليها يد الزمان المخربة ولم تبق منها أثراً يستدل به عليها وانما بقيت ذكراها فى القلوب وسجل اسمها فى التاريخ .

وما دمنا بصدد ذكر المعاهد العالمية فجدير بنا أن نذكر الازهر الشريف بالحمد والشكر فانه حفظ التراث الاسلامى عدة قرون ولا يزال يؤدى رسالته العلمية وينشر العلوم الدينية والعربية ويحتضن من يرحل اليه من طلاب العلم من أنحاء البلاد الاسلامية ويثقفهم ثقافة علمية دينية فهو المعهد العلمى الدينى الوحيد الذى بقى فى العالم الاسلامى حفظه الله وأدامه إلى يوم الدين .

(*) واعتمدت الحكومة التركية فى المدة الأخيرة مبلغا كبيرا لترميم هذه المدارس .

فى مدرسة « آيا صوفيه » كثير من أفاضل العلماء ذكرت تراجمهم فى الشقائق .

وكانت مدرسة « زَيْرَك » كمدرسة « آياصوفيه » ذات شهرة كبيرة بكبار أساتذتها وطلابها وكان أول مدرس فيها هو المولى زيرك من كبار علماء عصره أخذ العلوم من العالم الكبير والصوفى الشهير الحاج بيرام دفين آنقره وهو الذى لقبه بزيرك ومعناه الفطن الألمعى لما شاهد فيه من أمارات النبوغ وشدة الذكاء . وكان يدرس بمدرسة السلطان مراد خان بمدينة بروسه قبل أن يعين بالمدرسة المارة الذكر .

وقد جرت بينه والمولى خواجه زاده مناظرة علمية استمرت سبعة أيام وانتهت باعتبار أنه فقد القضية فعزله السلطان من وظيفة التدريس وعين مكانه خواجه زاده وقد تأثر المولى زيرك من ذلك فبارح القسطنطينية الى بروسه وأمضى بقية عمره فيها . والظاهر أن السلطان ندم أخيراً على سلوكه معه هذا المسلك فدعاه الى استانبول باذلا له الوعود ولكنه اعتذر عن عدم قبول الدعوة . وفى رواية أنه أسند اليه منصب الافتاء فى بروسه فى أواخر أيامه بمرتب يومى قدره مائة آقچة وتوفى وهو يشغل هذا المنصب ودفن فى مكان يسمى « پيكارباشى » [= رأس الينبوع] بمدينة بروسه .

ومن أراد الحصول على تفصيلات أكثر فى هذه المدارس فليراجع كتاب « استانبول او نيورسته‌سى تاريخنه باشلانغج » [= التمهيد لتاريخ جامعة استانبول] لمؤلفه الباحث الجليل الأستاذ سهيل أنور .

وبينما كانت هذه المدارس تعمل لأداء رسالتها العلمية فانا نرى مؤسسات اخرى علمية انشئت بداخل القصر السلطانى وعرفت بمدارس « أندرون همايون » (١) تعمل هى ايضاً لتخريج رجال الجند والادارة والصناعة .

---

(١) «أندرون» كلمة فارسية معناها الداخل . وقد عرفت معنى «همايون» =

كانت مدينة بروسه هى المركز العلمى قبل فتح القسطنطينية وقد انتقل هذا العنوان العلمى اليها بعد الفتح .

والواقع أنه كان هناك علماء أعلام قبل إنشاء مدارس الفاتح تخرجوا فى دور العلم الكائنة فى قرمان وقونيه وإزنيق والشام ومصر وسائر المدن الاسلامية من أمثال الشيخ إدَبالى وخليل الاسود وجمال الدين الآقسرائى والمولى الفنارى والمولى الكورانى والمولى خسرو والمولى خضر بك تدين لهم الامة الاسلامية بالاحترام البالغ لما تركوا من آثار علمية خالدة إلا أنهم كانوا قلة . وبعد انشاء مدارس الفاتح أصبحوا كثرة تستعصى على العد .

مراحل التعليم :

وفيما يلى نذكر مراحل التعليم والنظم الدراسية المتبعة بمدارس الفاتح :

مرحلة اولى	وتسمى	الخارج
« ثانية	«	الداخل
« ثالثة	«	موصلة الصحن
« رابعة	«	الصحن

نظام الالتحاق بهذه المدارس والانتقال من مرحلة الى اخرى :

كان على الطالب الذى يريد الانخراط فى السلك العلمى أن يواظب أولا

= فيما تقدم من ٤٨ يسجل لنا التاريخ أسماء ستين صدر أعظم وثلاثة شيوخ الاسلام وثلاثة وعشرين قائداً بحرياً تخرجوا فى مدارس « أندرون » ويقاس عليهم غيرهم من الرجال الذين تخرجوا فيها . وكان الاساتذة الذين تولوا التدريس فيها من أمثال المولى سراج الدين والمولى حميد الدين واحمد باشا والمولى مصلح الدين وغيرهم ممن كانوا فى مستوى مدرسى الصحن فى العلم والفضل .

على حلقة تدريس عالم فى احدى المدارس المعروفة بمدارس الخارج ويدرس عليه مبادىء العلوم ثم يلتحق ـ بتوجيه أستاذه ـ باحدى مدارس الداخل ويدرس فيها على عالم آخر العلوم العالية المقررة فيها(١) حتى اذا أتم دراسته فيها خول له ذلك حق الالتحاق بمدارس الصحن ولكن لا مباشرة بل بعد أن درس العلوم المقررة فى احدى المدارس المعروفة بموصلة الصحن التى كانت بمثابة قسم اعدادى بالنسبة لمدارس الصحن(٢) .

---

(١) لم نعثر على البرامج التفصيلية وفروع العلم التى كانت تدرس فى هاتين المرحلتين وإنما يستنتج من كتب التاريخ أن المرحلة الاولى كان تدرس فيها مبادىء العلوم الدينية والرياضية والطبيعية وتسمى دروس الخارج . والمرحلة الثانية كان تدرس فيها مقاصد هذه العلوم ولا سيما الفقه وتسمى دروس الداخل .

ومما لا شك فيه أنه كان يشترط فيمن يريد الالتحاق بالمرحلة الاولى أن يكون متعلماً فى المدارس الابتدائية ويكون على قسط من المعلومات العامة فى اللغة العربية وسائر العلوم التى تدرس فيها . ويؤخذ أيضاً من المعلومات الناقصة الواردة فى كتب التاريخ أن المدارس التى أنشأها السلاطين كمدرسة أبى أيوب الانصارى وغيرها كان تدرس فيها العلوم المقررة فى المرحلة الثانية والمدارس التى أنشأها الوزراء مثل مدرسة محمود (باشا) تدرس فيها العلوم المقررة فى المرحلة الاولى . ومع كل هذا لم نجد تفاصيل نطمئن إليها فى هذا الصدد .

(٢) كلمة الصحن لها عدة معان فى اللغة منها وسط الدار . والدار كما تطلق على المنزل والبيت تطلق أيضاً على البلدة والمدينة . فسميت هـذه المدارس صحناً لانها انشئت فى وسط المدينة . وهناك رأى آخر يذهب الى ان المدارس المشار اليها سميت بهذا الاسم لانها فى ميدان محيط بالمسجد ولكن اذا نظرنا الى الاماكن التى توجد فيها المدارس يترجح الرأى الاول .

واما تسمية مدارس موصلة الصحن «تتمة» فلانها طريق الى مدارس الصحن =

ومدارس الصحن هذه هى المدارس الثمان المبنية حول جامع الفاتح وتسمى الصحن الثمان وسنتكلم عليها قريباً ، واما مدارس موصلة الصحن فهى ثماني مدارس صغيرة اخرى تسمى « تتمة » بنيت خلف المدارس الثمان المشار اليها اى اربع منها خلف المدارس الكائنة بجهة البحر الابيض وأربع خلف المدارس الكائنة بجهة البحر الاسود ويبلغ عدد مدارس الصحن وموصلة الصحن كلها ست عشرة مدرسة .

وفى وقفية الفاتح سميت مدارس الصحن الثمان بالمدارس العالية وسميت مدارس التتمة بالمدارس الصغرى .

وكان على الطالب لكى يجتاز من مرحلة الخارج الى مرحلة الداخل

= فان الطالب لا يسمح له بالالتحاق بالصحن الا اذا درس العلوم المقررة فى التتمة ونجح فى الامتحان .

قلنا فيما تقدم إن مدارس الصحن ثمان ، أربع منها فى جهة البحر الابيض وأربع أخرى فى جهة البحر الاسود ، وإن خلف كل واحدة من هذه المدارس الثمان ثماني مدارس أخرى تسمى موصلة الصحن او المدارس الصغرى او « التتمة »

وقبل الشروع فى ذكر أسماء هذه المدارس الثمان وبيان معانيها وسبب التسمية ينبغى أن نعلم أولا معانى المفردات التى تتألف منها الاسماء ، وهاهى ذى تلك المفردات:

الكلمة	المعنى
قره دكز	البحر الاسود
آق «	« الأبيض
باش	الرأس
آياق	القدم = الرجل
قورشونلى	مغطاة بالرصاص
چيفته	الزوج

وفيما يلى نبين اسماء المدارس ومعانى الاسماء وسبب التسمية وأوضاع بعضها من بعض =

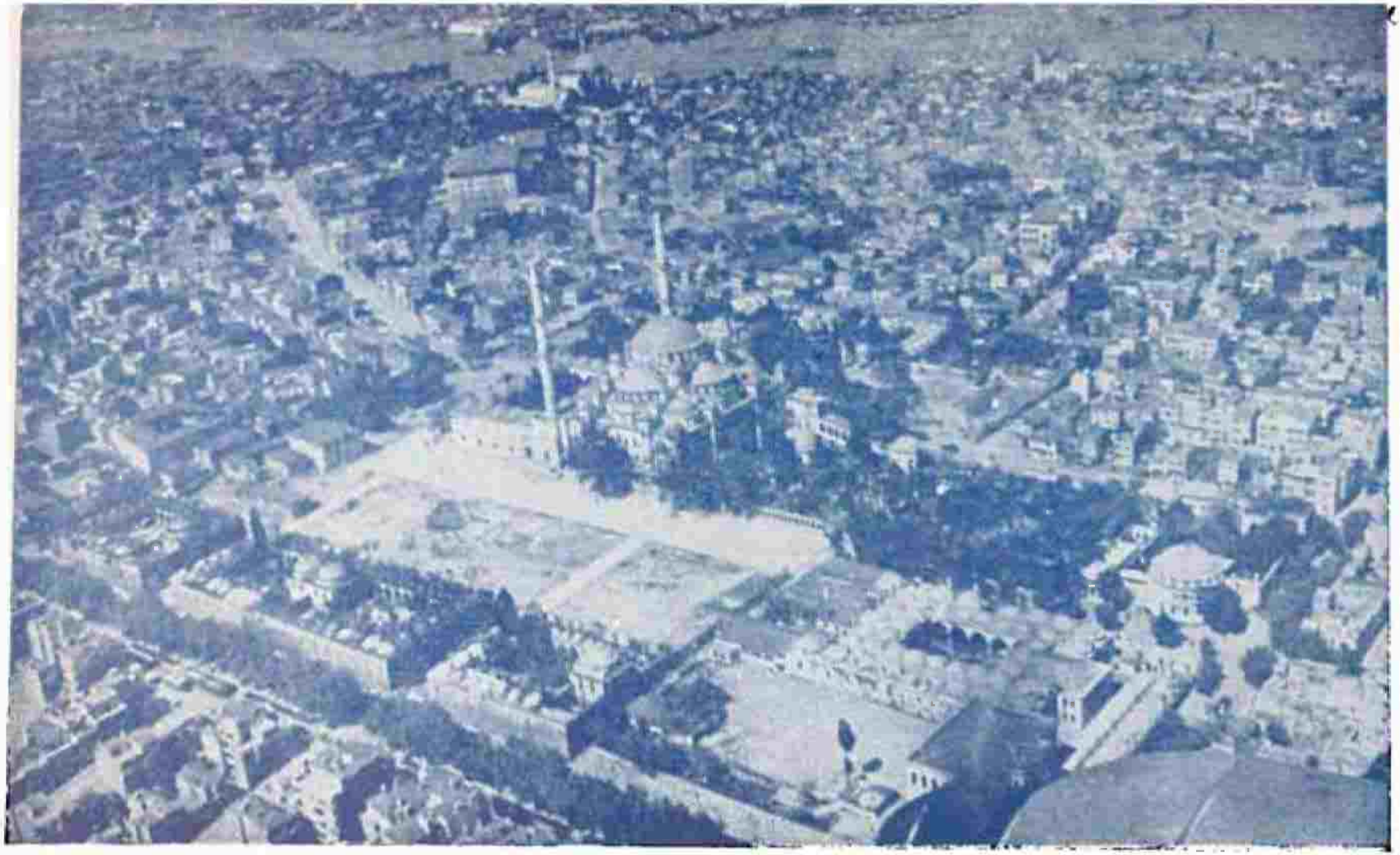

جامع الفاتح ومدارس الصحن والتتمة

لاشك فى أنه لم ينزل من السماء ولكنه سماوى : حوى تجليات إلهية فياضة لا أرض لها .

(محمد عاكف)

المجموعة الكائنة فى جهة البحر الابيض

مدارس التتمة		مدارس الصحن
	(١)	آق دكز باش قورشونلى
		ممر
	(٢)	آق دكز جيفته باش قورشونلى
	(٣)	آق دكز جيفته آياق قورشونلى
		ممر
	(٤)	آق دكز آياق قورشونلى

المجموعة الكائنة فى جهة البحر الاسود

مدارس الصحن		مدارس التتمة
قره دكز باش قورشونلى	(١)	
ممر		
قره دكز جيفته باش قورشونلى	(٢)	
قره دكز جيفته آياق قورشونلى	(٣)	
ممر		
قره دكز آياق قورشونلى	(٤)	

جامع الفاتح

ومنها الى موصلة الصحن ومنها الى الصحن ، أن يؤدى امتحاناً يثبت به لياقته للمرحلة التى يريد الالتحاق بها وكان لا يسمح له بالانتقال من مرحلة الى اخرى مالم تثبت لياقته . وإذا أتم الطالب دراسته فى مرحلتى الداخل والخارج والتحق بموصلة الصحن ودرس العلوم المقررة فيها ونجح فى الامتحان أعطى براءة سلطانية موشحة بالطغراء [= الطرة] وسجل اسمه بالديوان السلطانى العالى وتسمى هذه البراءة السلطانية « ملازمت رؤسى » [= رؤس الملازمة] .

وإذا أراد بعد ذلك ان يتخصص فى مادة ، التحق بمدارس الصحن وتلقى فيها الدروس فى تلك المادة . وأما إذا لم يرغب فى الالتحاق بالصحن

اسم المدرسة الاولى من مدارس الصحن سواء أكانت فى جهة البحر الابيض او الأسود « باش قورشونلى » وهذا الاسم مركب من لفظين : « باش » بمعنى الرأس و « قورشونلى » بمعنى المغطاة بالرصاص وسميت به لانها فى مقدمة مجموعتها وضعاً كما أن الرأس فى مقدمة أعضاء الانسان . وحجرها ، هى وأخواتها تعلوها قباب مغطاة بالرصاص كقبة مسجد محمد على بقلعة مصر ، وهذا هو السبب فى تسمية كل واحدة منها « قورشونلى »

اسم المدرسة الرابعة فى الجهتين المذكورتين « آياق قورشونلى » وهذا الاسم ايضاً مؤلف من لفظين : « آياق » بمعنى القدم و « قورشونلى » عرفت معناها وسبب التسمية بها . وسميت هذه المدرسة بهذا الاسم لأنها فى نهاية مجموعتها وضعاً كما أن القدم فى نهاية أعضاء الانسان . وقبابها مغطاة بالرصاص كالأولى

اسم المدرسة الثانية فى الجهتين أيضاً « چيفته باش قورشونلى » وهذا الاسم مركب من ثلاثة ألفاظ : الاول « چيفته » بمعنى الزوج ، وقد عرفت معنى الثانى =

مكتفياً بدراسة المراحل السابقة فكان يعين قاضياً فى المدن ما عدا المدن الكبيرة كاستانبول وأدرنه وبروسه .

والطلاب الذين أتموا مرحلتى الخارج والداخل باستانبول او ما يعادلهما فى مدارس المدن الأخرى يصح أن يعينوا نواباً عن القضاة فى المدن الصغيرة وذلك بشرط أن يؤدوا إمتحاناً فى مواد الصك والمحاضر والسجلات .

واما التخصص فى مدارس الصحن فلم يكن شرطا لتولى القضاء وإنما كان شرطا لتولى التدريس . والطالب الذى يتم مرحلة التخصص فى الصحن ونال شهادتها [وكانت هذه الشهادة تسمى « رؤس »] يعين أول ما يعين

— والثالث . وسميت هذه المدرسة بهذا الاسم لانها هى والثالثة زوجان متصلتان بعضهما ببعض مفصولتان عن الاولى والرابعة بممرين كما يبدو فى الصورة المرسومة ص ٨٧ وأما سبب تسميتها « باش » إما لقربها من المدرسة الاولى المسماة بها فكأنهما زوجان من الرأس وإما لأنها فى مقدمة وحدتها فانها هى والثالثة تؤلفان وحدة مستقلة فى وسط المجموعة .

واسم المدرسة الثالثة فى الجهتين كذلك « چيفته آياق قورشونلى » وهذا الاسم مركب من ثلاثة ألفاظ قد عرفت معنى كل منها وسبب تسميتها « چيفته » عند ما تكلمنا آنفا على اسم المدرسة الثانية . وأما تسميتها « آياق » مع أنها ليست فى النهاية أما لقربها من المدرسة الرابعة المسماة بها وأما لانها فى نهاية وحدتها .

هذا ؛ ويضاف الى اسم كل مدرسة من مدارس المجموعتين اسم البحر الذى تقع فى جهته فيقال مثلا : « قره دكز باش قورشونلى . . . . . الخ وآق دكز باش قورشونلى . . . . الخ تمييزاً لها عن مشاركتها فى الاسم .

ويظهر من الصورة المرسومة ص ٨٧ ان خلف كل واحدة من مدارس الصحن =

مدرسا بمدرسة من الدرجة الابتدائية ثم يترقى بالتدريج الى أن يتولى التدريس فى أكبر مدرسة .

وكان أقدم طالب من أصحاب الحجرة المقيمين بمدارس الصحن يسمى « معيداً » ويساعد الطلبة المستجدين فى مذاكرة دروسهم كما كان يؤدى دروسا لطلبة مدارس التتمة السابق ذكرها .

وكان قضاء المدن الكبيرة مثل استانبول وبروسه وأدرنه يسند الى من كان فى مستوى كبار الاساتذة البارزين الذين امتازوا بكفاءتهم العلمية ومؤلفاتهم القيمة .

= فى الجهتين المذكورتين مدرسة صغيرة من مدارس التتمة وبها يبلغ عدد المدارس كلها ست عشرة مدرسة . ويشتمل كل واحدة من مدارس الصحن الثمان على تسع عشرة حجرة وقاعة كبيرة لالقاء الدروس والمحاضرات على الطلبة . واما مدارس التتمة فيشتمل كل واحدة منها على ثمانى حجرات . ويؤخذ من كتب التاريخ انه كان يقيم فى كل حجرة من حجرات الصحن الثمان طالب [دانشمند] وفى حجرات « التتمة » ثلاثة طلاب [= دانشمند] .

ويقدم لنا المؤرخ « صولاق زاده » المعلومات الآتية عن المدارس المذكورة :

أنشئت أربع مدارس عليا فى كل جانب من جانبي المسجد المبارك وفى كل مدرسة منها تسع عشرة حجرة . حجرتان منها معدتان للاستاذ والمساعد [المعيد] وحجرتان للفراش والبواب ، والخمس عشرة الباقية لسكنى الطلبة . وسميت هذه المدارس صحناً لانها انشئت فى وسط المدينة . ولما كان عددها ثمانية أصبحت مغبوطة الجنات الثمان ومحسودة السموات السبع . وتوجد خلف كل مدرسة من هذه المدارس الثمان مدرسة ملحقة بها تسمى (تتمه) تشتمل على ثمانى حجرات يسكن فى كل منها ثلاثة طلاب ويصرف لكل منهم مرتب شهرى قدره (١٢ آقچه) كبدل الشمع

وبنى بجوار هذه المدارس مطعم خيرى ومستشفى كامل المعدات وسائر المرافق .

وقد أنشأ محمد الفاتح بجوار هذه المدارس مطعماً خيرياً ومستشفى كامل المعدات وكان الطلاب الذين يدرسون الطب يتمرنون فى هذا المستشفى .

والخلاصة : كانت فروع العلم كلها تدرس فى هذه المدارس ويتخرج فيها القضاة والأطباء والمهندسون .

وفى عهد السلطان سليمان القانونى اتسعت رقعة البلاد اكثر من ذى قبل فمست حاجة الجيش الى عدد كبير من الاطباء والجراحين كما اكتسبت الهندسة أهمية كبرى فأنشئت بجوار مسجده المعروف باسمه ـ ذلك المسجد العظيم الذى يمثل العصر الذهبى العثمانى (١) ـ مدرسة طب ومستشفى كما انشئت حول المسجد أربع مدارس لتدرس فيها العلوم الرياضية والطبيعية . وانشئت ايضاً دار الحديث والحقت بهذه المدارس عدة مدارس اخرى كقسم إعدادى لها وسميت « موصلة السليمانية » واذا أتم الطالب مرحلتى الداخل والخارج وأراد ان يدرس الطبيعة والرياضة والطب التحق بموصلة السليمانية [= تتمات السليمانية] واذا رغب فى دراسة الادب العربى والفقه والتفسير والكلام وسائر العلوم الاسلامية التحق بموصلة الصحن [= تتمات الفاتح] ويرجع للحصول على تفصيلات اكثر مما ذكرناه الى كتب التاريخ

---

(١) وقد وصف هذا المسجد العظيم شاعر الاسلام المرحوم محمد عاكف (*) (بك) وصفاً رائعا بديعاً فى قصيدة عصماء تعد آية فى الشعر التركى كما أن الموصوف معجزة فن الهندسة .

(*) وهو شخصية معروفة بمصر أقام بها مدة طويلة وتولى تدريس الادب التركى بجامعة القاهرة ثم مرض وسافر الى استانبول وتوفى بها الى رحمة الله سنة ١٣٥٥ هـ و١٩٣٦ م ودفن بمقبرة « أدرنه قبو » أغدق الله عليه سجال رحمته وأسكنه بحبوحة جناته :
وله ديوان مؤلف من سبعة أجزاء باسم « صفحات » يضم روائع الشعر وعيون القريض .

وخصوصاً الى تاريخ جودت (باشا) (١) .

كان الموظفون المنوط بهم تحقيق العدالة من أصغر موظف الى قاضى العسكر علماء وقورين ممتازين فى الفقه والحقوق كل على حسب المركز الذى يشغله كما كانوا من حسن الخلق والسلوك بحيث لا سبيل الى الاعتراض عليهم . وانهم فى اثناء دراستهم الدينية والأدبية تلقوا تربية دينية وتأصلت فى قلوبهم عقائد دينية دفعت الجمهور الى احترام شخصياتهم واوحت الى النفوس ثقة عظيمة بصحة الاحكام التى يصدرونها . كما أن ولى الأمر لم يكن يضن عليهم بعطفه ورعايته فكانت معروضاتهم تقع منه موقع القبول والاجابة .

وظائف القضاة :

أشرنا فى كلمتنا التى صدّرنا بها الكتاب الى أن كتب التاريخ زاخرة بمعلومات مسهبة عن الأحداث السياسية والمعارك الحربية وعن الحركات

---

(١) نذكر فيما يلى بعض شخصيات علمية تولوا التدريس بمدارس محمد الفاتح لنأخذ فكرة عن جلال هذه المدارس وعظمتها : علاء الدين على الطوسى ، المولى خسرو ، المولى زيرك ، خواجه زاده ، الكستلى ، خطيب زاده ، عبد الكريم ، حسن بن عبد الصمد السمسونى ، الحاج حسن زاده ، افضل زاده حميد الدين ، يعقوب باشا ، حسن چلبى ، قاضى زاده ، ابن مغنيسا ، حسن بن حامد التبريزى ، بهاء الدين ، سراج الدين ، مصلح الدين اليار حصارى ، علاء الدين على الفناري ، يوسف بن حسين الكرماستى . هؤلاء العلماء الاعلام حذقوا العلوم العقلية والنقلية كل الحذق وتخصصوا فيها وعرفوا فى البيئات العلمية بعلمهم وفضلهم وبما ألفوا من الكتب العلمية القيمة . جرت مناظرة علمية بين المولى زيرك وخواجه زاده بحضرة السلطان محمدالفاتح استمرت سبعة أيام . تصوروا غزارة العلم وسعة التفكير اللتين مكنتا هذين العالمين من إستدامة المناظرة مدة اسبوع كامل .

العلمية وتراجم الأمراء والعلماء والشعراء ومشايخ الطرق . ولكنها شحيحة فيما يختص بالقضاء والتشكيلات القضائية ووظائف القضاة والنظم المتبعة والقواعد وإنما اكتفت كتب التاريخ فى هذا الصدد بتقديم معلومات عن الأوصاف التى يجب توافرها فيمن يتولى القضاء وعن الاعمال البلدية التى يقوم بها القضاة اجمالا .

هذا ؛ ولا نجد فى كتب التاريخ ايضاً إحصاءات عن الاعمال الواردة الى المحاكم والنظم المتبعة فى نظر القضايا وإجراء الاحكام . ويخيل الىّ ان السبب فى خلو كتب التاريخ من هذه المعلومات أن القضاة كانوا مكلفين بتطبيق الاحكام الشرعية على ما يعرض عليهم من الحوادث والقضايا وكانت هذه الاحكام معلومة لهم سواء كانت خاصة باصول النظر او باجراء الاحكام وتنفيذها .

والواقع ان هذه الاحكام مدونة فى كتب موثوق بها مؤلفة من قديم الزمان وكل عالم أو قاض يطلع على هذه الكتب ويدرس الاحكام المدونة فيها ويعرفها معرفة تامة .

وان قضاة تلك العهود بلغوا من متانة الخلق وقوة العقيدة مستوى لا يسمح لهم باصدار الحكم من غير بحث شامل ودرس دقيق . على أنه لم يكن ذلك فى امكانهم حتى ولو أرادوه فان العلماء والمفتيين كانوا واقفين لهم بالمرصاد يراقبونهم مراقبة علمية ويحاسبونهم حساباً عسيراً على أقل هفوة تقع منهم .

وليست بنا حاجة إلى العود الى الماضى البعيد للاستدلال على صحة ما قلناه فاننا نعلم أنه كان هناك الى عهد قريب قضاة من رجال الدين تخرجوا فى المعاهد الدينية إذا عرضت على أحدهم قضية هامة لا يصدر حكمه فيها ما لم يقتلها بحثاً ودرساً ويستشير العلماء ويراجع المفتيين حتى يحصل له اقتناع

تام . وقد أدركنا نحن كثيراً من أمثال هؤلاء القضاة الأماثل . وقد درجت دار الافتاء باستانبول على هذا المنهج القويم من الصلابة التى لا تعرف اللين وظلت حريصة عليها الى أن ألغيت .

وإنا وإن كنا لا نجد فى كتب التاريخ احصاءات دقيقة عن عدد القضايا التى كانت تعرض على المحاكم غير أنه يمكننا أن نستنتج من السجلات الخاصة بعهد السلطان سليمان القانونى وعهود من وليه من السلاطين ، المحفوظة فى مخزن الاوراق ، أنها ما كانت بواقع الواحد فى المائة بالنسبة لما يعرض الآن من الحوادث حتى إن القضايا التى كانت تعرض على المحاكم قبل نحو سبعين سنة لم تكن بأكثر من الواحد فى المائة بالنسبة لعدد القضايا التى تعرض اليوم . وكانت هذه الظاهرة الاجتماعية السعيدة نتيجة لمتانة خلق الشعب وعدالة المحاكم التى كانت تتجلى بسرعة عقب مرافعة بسيطة خالية من الاجراءات الشكلية المعقدة على اختلاف أنواعها . ولا ننسى هنا فضل المفتيين وثقة الشعب بهم فى فصل ما شجر بينهم من الخصومات وسنعرض فى مبحث الافتاء لخدمات المفتيين للعدالة .

وبعد أن أدت بنا المناسبة الى ذكر هذه الحقائق استطراداً أعود الى أصل الموضوع فأقول :

كان القضاة بمالهم من الولاية العامة يفصلون فيما يعرض عليهم من القضايا المدنية والجنائية وفقاً للأحكام الشرعية ويشرفون على أموال الوقف والقصر ويتنظرون على الأوقاف التى لا ناظر لها ويعينون أوصياء على القصر الذين ليس لهم أوصياء وعلى السفهاء المحجور عليهم ، ويراقبون إدارة أموالهم .

لم يكن الرجوع الى القضاء خاضعاً لاى اجراء وانما يتوجه صاحب القضية الى المحكمة مباشرة إما بعريضة أو بدونها وتسجل فيها قضيته فتدعو المحكمة اليها الطرف الثانى فى القضية المتنازع فيها وبعد المرافعة والمحاكمة يصدر الحكم .

وكانت الرسوم المستوفاة قليلة جداً . وكان للقاضى أن يستفتى مفتى الانام [= شيخ الاسلام] او أى مفت آخر او عالم فى القضايا المشكلة على انه اذا جاء الرد غير موافق لرأيه لم يأخذ به . وكانت الاحكام الصادرة تنفذ بمعرفة الموظفين المختصين دون أن تكون خاضعة لمراسم . وكانت النظم الخاصة بتتبع سير القضايا من البساطة بحيث لا تؤدى الى التسويف والتأخير .

قلنا فيما مضى إن المقاولات والمعاملات التى تحدث بين الجمهور تسجل من قبل كتاب العدل وانه لابد من وجود كتاب العدل تحت إشراف القضاة . ففى الدولة العثمانية قامت المحاكم بهذا العمل إلى المدة الأخيرة وذلك اذا وكل أحد شخصاً آخر او أقر ديناً او باع او وهب او أجر او عقد شركة وما الى ذلك من المعاملات وأراد توثيقها ، توجه اصحاب الشأن الى المحكمة يقررون امامها ما قاموا به من المعاملة ويسجلونه ويتسلمون وثيقة خاصة بذلك مختومة بخاتم القاضى ويحتفظون بها . واستمر هذا النظام الى المدة الأخيرة على النحو المذكور .

وكانت الدعاوى والحوادث التى ترفع الى المحاكم الشرعية تضبط ضبطاً متقناً يوثق به ويطمئن اليه النفس فانه ، كما يفهم من المضابط والسجلات الموجودة بين أيدينا التى يرجع عهدها الى نحو أربعمائة سنة ، اذا وردت الدعوى الى المحكمة قيدت اولا فى جريدة الضبط واذا فصل فيها وصدر الحكم سجلت الاعلامات والحجج التى تنظم وفقاً للمضابط فى سجلات خاصة تحفظ بعناية تامة .

وفى العصر الثانى الهجرى بعد الاسلام أحدث علم الصك اى علم تحرير المضابط والاعلامات والمقاولات ويسمى علم المحاضر والسجلات وعلم الشروط ايضاً . وقد بنى هذا العلم على أسس متينة وقواعد عامة تطبق فى جميع

المحاكم الكائنة فى البلاد الاسلامية كلها فانك اذا اطلعت على إعلام صدر من محكمة الكوفة وإعلام آخر صدر من محكمة القاهرة وجدتهما متحدين فى اللفظ والتعبير والاصطلاح سوى ما يخص كلا منهما من الزمان والمكان ونوع القضية وما الى ذلك من الخصوصيات . (١)

وكان لا يكتب فى الإعلامات والمستندات ما لا حاجة اليه من حشو الكلام ، ولا يترك أى قيد اولفظ هام لاغنى عنه وكأن الانسان يحس عندما يقرأ هذه الاعلامات أنه يقرأ بحثاً فقهياً .

ومحصل الكلام : كان يعنى عناية بالغة الغاية بتنظيم الوثائق وتسجيلها والمحافظة عليها . ولكى نفهم مبلغ هذه العناية والدقة المتناهية يكفينا أن نلقى نظرة فاحصة الى هذه السجلات والمجلدات التى يبلغ عددها نحو ألف سجل وتسمى « قيود خاقانى » (٢)

---

(١) كانت قواعد هذا العلم الاساسية وضعت من قبل الفقهاء الاولين ولكنها لم تطبق عملياً الا فى سنة ١٢٠ هجرية ، فعبدالله ابن شبرمة من كبار الفقهاء هو الذى بدأ فى تسجيل الاعلامات فى سجل خاص . وكانت الدعاوى والاحكام لا تسجلان فى العهد النبوى ولا فى عهود الخلفاء الراشدين والاصحاب ولا فى عهد التابعين وانما يكتفى بالحكم الشفوى يصدره القاضى وينفذه المتقاضون فور صدوره وكانت متانة أخلاق الجمهور وقلة الحوادث لا تدعوان الى ضبط الحوادث وتسجيل الاحكام ، واستمرت الحالة على هذا الى أن ولى ابن شبرمة قضاء الكوفة فكثرت الحوادث وتطورت الاخلاق فمست الحاجة الى الضبط والتسجيل والتوثيق .

(٢) « قيود خاقانى » هى إحصاءات رسمية عن القرى والمزارع والمراعى والمصايف والمشاتى وسائر الاراضى الكائنة فى البلاد العثمانية والجهات التى تكون مربوطة بها وتابعة لها . وقد أجريت هذه الاحصاءات فى العهد العثمانى ، وبصفة خاصة فى عهد السلطان سليمان القانونى وعهد السلطان مراد الثالث قامت بها لجان اختير =

وكانت للقضاة وظيفة أخرى غير الوظائف السالفة الذكر تتصل بأعمال بلدية لاقضائية وظلوا يباشرون هذه الاعمال البلدية فى الولايات والسناجق والمراكز الى عهد « التنظيمات »

— أعضاؤها من ذوى الكفاءة والاستقامة ودونت فى سجلات خاصة تدويناً دقيقاً متقناً منظماً صحيحاً خالياً من شائبة الشك والتزوير . ويبلغ عدد هذه السجلات ٩٧٠ سجلا كانت تحفظ فى دار المحفوظات السلطانية [دفترخانهء خاقانى] بداخل مخزن محكم مختوم يصل اليه الانسان من أربعة أبواب حديدية متداخلة . وأخيراً نقلت هذه الكنوز الثمينة من استانبول الى آنقرة وتحفظ الان بداخل دواليب زجاج فى مبنى محكمة النقض فى عهدة موظف .

وكان فى العهد العثمانى اذا لزم تغيير مربوطية قطعة من الاراضى المسجلة فى تلك السجلات وذلك بناء على الاذن الشرعى ، يستصدر المرسوم السلطانى من قلم الديوان الهمايونى ويدون رئيس قلم التوقيع خلاصة المرسوم فى صدر البيان الخاص بتلك القطعة ويضع إمضاءه تحت الخلاصة ، ويجرى كل هـذه الاجراءات بحضرة ناظر « دفترخاقانى » ثم يعاد السجل الى المخزن كما يحفظ المرسوم لدى الموظف المختص .

هذه الوثائق قيمة جداً ورائعة جداً وقد بلغت قيمتها وروعتها حداً يصح معه أن يعد مفخرة يفخر بها الذكاء التركى ، ودليلا يستدل به على مقدرته على الابداع والاختراع فجمال الخط فى الكتابة ، والدقة المتناهية فى الترتيب ، والامانة الكاملة فى تدوين المعلومات ، والاتقان البالغ الغاية فى البيانات ، ونفاسة التجليد كل ذلك فوق التصور والتقدير .

وقد أبدعت هذه الآثار القيمة التى لم يكن يرى مثلها ، الى ذاك الوقت ، تحت إشراف جماعة من علماء الترك ويستدل منها ومن غيرها من الآثار الخالدة التى ورثناها من أجدادنا على أن الاتراك أبدعوا لا فى فن الحرب والقتال فحسب بل فى ميادين العلم والادارة والحضارة . ولا يكتم المستشرقون ورجال بعض البلاد المنسلخة من الامبراطورية العثمانية إعجابهم بالذكاء التركى الذى أبدع هذه النفائس . وانى أنصح شباننا أن يزوروا هذه السجلات ويستجلوا محاسنها ويتأملوها بعين العبرة والدقة .

وكانوا مرجعاً لأرباب الحرف والصناعات فى شئونهم الخاصة بهم فتعيين «كتخدا» (١) و «يگيت باشى» (٢) وعزلهما، وزيادة الاسعار أوخفضها ومراقبتها والمحافظة على النظام المتبع بين أرباب الحرف وفصل ما يحدث بينهم من المنازعات كل ذلك كان من جملة وظائف القضاة.

كان القضاة يندبون من قبلهم نواباً ومفتشين يفتشون السوق ويمنعون أهلها من المخالفة للأوامر والنظم ويعاقبون من يجرأون على ارتكابها ويسمى هؤلاء النواب «نائب القدم» لانهم يؤدون أعمالهم وهم واقفون على أقدامهم ويجد القارىء تفصيلات اكثر مما قدمناه فى هذا الموضوع فى الجزء الاول من كتاب «مجلة الامور البلدية» لمؤلفه الباحث القدير عثمان نورى أركين.

الاحتساب:

ذكرنا فى المقدمة معنى الاحتساب والاصل الذى يتفرع عليه من الاصول الشرعية مع بيان وظيفة المحتسبين. اقتفى العثمانيون اثر الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاءه الراشدين رضوان الله عليهم فى الاحتساب ايضاً كما اتبعوهم فى القضاء فعينوا موظفين مستقلين ليقوموا بشؤون الاحتساب ويسمى هؤلاء الموظفون «المحتسب» [احتساب آغاسى].

---

(١) اسم مركب من لفظين فارسيين أحدهما «كت» بفتح الكاف العربية واصله «كد» بمعنى البيت والآخر «خدا» بضم الخاء المعجمة بمعنى صاحب ومعنى الاسم ـ صاحب البيت وكلمة «كخيا» محرفة منه. ويطلق على الوكيل والمعتمد وعزيز القوم وغير ذلك من المعانى والمقصود منه هنا رئيس أرباب الحرف والصناعات ومدير شئونهم ومدبر امورهم.

(٢) «يگيت» بمعنى فتى فى ريعان الشباب مكتمل القوة شجيع. والمقصود منها هنا الموظفون الذين يكونون تحت يد الكتخدا وينفذون أوامره ونواهيه. و «يگيت باشى» رئيس هؤلاء الموظفين.

كان فى كل مركز [قضاء] محتسب كما كان فى استانبول والبلاد المصطلح على تسميتها البلاد الثلاثة ولا يمكن تحديد عملهم بالضبط فى عهد الفاتح ولكن الامر المحقق أن القاضى هو المرجع الاصلى فى الشؤون البلدية فهو الذى يحدد الأسعار(١) ويفصل فيما يحدث بين أرباب الحرف من المنازعات ، وأما ماعدا ذلك من الأعمال المتصلة بالبلدية فيؤديها نائب القاضى [نائب القدم] والمحتسب والمعمار الأول . وقد حدثت تغيرات كثيرة فى اختصاص هؤلاء فى عهود مختلفة .

والمفهوم من كتب الفقه والتاريخ أن عمل المحتسب لم يكن مقصوراً على شؤون البلدية بل كان يمتد الى شؤون اخرى تتصل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) ذكر فى كتب الفقه فى باب الحظر والاباحة فى فصل البيع مانصه : لا يسعر على الناس فانه نوع حجر إلا أن يتعدى التجار تعدياً فاحشاً فى القيمة — وقدر التعدى الفاحش بزيادة مثل القيمة بأن يبيعوا أردب القمح بمائة مثلا وهو يشترى بخمسين — فلا بأس حينئذ بالتسعير بمشورة أهل الخبرة . وأجاز الامام مالك رحمه الله التسعير فى عام القحط .

والاصل فى ذلك ماروى ان السعر غلا بالمدينة فقالوا يارسول الله : «لو سعرت؟» فقال لا تسعروا فان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق »

أخرج هذا الحديث ابوداود والترمذى فى «البيوع» وابن ماجه فى «التجارات» عن حماد بن سلمة عن قتادة وثابت وحميد . ثلاثتهم عن أنس قال الناس : يارسول الله غلا السعر فسعر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله هو المسعر القابض الرازق وإنى لارجو أن القى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة من دم ولا مال » قال الترمذى حديث حسن صحيح .

وجواز التسعير بنى على القاعدة الفقهية : « الضرر يدفع بقدر الامكان » و « يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام » واما المنع الوارد فى الحديث الشريف فمحمول على ما إذا كان الغلاء طبيعياً ولم يكن مصطنعاً ولا نتيجة لجشع التجار .

وقد مر بنا فيما تقدم أن من ضمن اختصاصهم أن يمنعوا معلمى الاطفال من القسوة عليهم اذا جاوزوا الحد المقرر فى تأديبهم . والا يسمحوا للملاحين بشحن السفن بأكثر ماتسعه من الاحمال والأثقال .

القضاة ومستواهم العلمى والخلقى :

قلنا فيما تقدم انه عندما نستعرض الحياة العدلية لعهد من العهود يجب أن نضع امام أعيننا ميول ولى الامر ومقدرته على تنفيذ ارادته ، ومبلغ قضاته من العلم والخلق وقلنا ايضاً إننا عندما ندرس الحياة العدلية لعهد الفاتح نبتدىء دراستنا من هذه النقطة . وفى كلامنا السابق حاولنا جهد استطاعتنا أن نبين ميول السلطان ومقدرته وحظ القضاة من العلم والان نريد ان نعرض فى الهامش تراجم بعض العلماء الذين تولوا القضاء فى استانبول وفى سائر الولايات والمدن الاخرى نقلا عن أوثق المصادر وذلك لكى يكوّن القارىء الكريم فكرة عن قضاة ذلك العهد .

وبالطبع لا يمكننا أن ندرج هنا تراجم قضاة العهد المذكور كلهم ولكن بالقياس على ما نذكر منهم لاتصعب معرفة احوال الباقين فان المذكورين يمثلون عصرهم فى ثقافته وخلقه أصدق تمثيل . كما أن قضاة بلادنا اليوم يمثلون العصر الحاضر من الناحيتين العلمية والخلقية .

المكتبة العربية زاخرة بكتب تراجم القضاة الذين تولوا القضاء فى مختلف البلدان الاسلامية : قرطبة ومصر والشام وبغداد والبصرة [1]

---

(١) نذكر من الكتب المذكورة على سبيل المثال : اخبار القضاة لوكيع القاضى ، وقضاة مصر للكندى ، رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى وذيله للحافظ السخاوى . والنجوم الزاهرة فى قضاة مصر والقاهرة لسبط ابن حجر ، قضاة قرطبة لمحمد بن الحارث الخشنى ، قضاة الاندلس لابن الحسن على بن عبد الله الباهى ، الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام للحافظ الشمس بن طولون الدمشقى ، روضة القضاة لابى القاسم على بن محمد السمنانى .

ولكن المكتبة التركية قفر ـ مع الاسف ـ من أمثال هذه الكتب حتى اننا كنا لا نعرف ـ الى عهد قريب ـ ترجمة اول قاض فى استانبول ، وقد سد هذا النقص باحثنا الجليل الدكتور سهيل بك ـ شكر الله سعيه ـ برسالته المسماة « خضر بك » فعرّفنا بهذا القاضى الكبير والعالم الجليل . نعم كان خضر بك(١) اول قاض تولى القضاء فى القسطنطينية بعد فتحها . وأما قبل

---

(١) خضر بيك بن جلال الدين ولد فى « سفر يحصار » من بلاد الاناضول وقرأ مبادىء العلوم على والده وكان قاضياً بها ثم وصل الى المولى محمد بن أدمغان الشهير بالمولى يكان فتلقى عنه العلوم العقلية والنقلية وبلغ رتبة الكمال وتزوج بنته وكان متقد الذكاء ذا فهم صحيح وعلم غزير وباع ممتد فى النظم والنثر وحصل العلوم الغريبة والفنون العجيبة ولذلك سمى بين العلماء «جراب العلم» . حكى انه جاء رجل متبحر فى العلوم من بلاد العجم فى اوائل جلوس السلطان محمد الفاتح فحضر مجلس السلطان واجتمع مع علماء البلاد ورؤسائهم وسأل عن المباحث الغريبة فانقطع الكل وعجزوا عن الجواب فاضطرب السلطان اضطراباً شديداً فطلب رجلا له الاطلاع على العلوم الغريبة فذكروا المولى خضر وكان شاباً — وكان زيه على زى العسكر فأحضروه فضحك العجمى مستصغراً له فقال المولى خضر هات أسئلتك فأورد الاسئلة من علوم شتى فأجاب عنها ثم سأله المولى من ستة عشر فناً لم يطلع عليها الرجل فانقطع وأفحم فطرب لذلك السلطان طرباً شديداً وأثنى على المولى ثناء جميلا وأعطاه مدرسة جده السلطان محمد چلبى فى بروسه فدرس فيها وتتلمذ عليه مصلح الدين الشهير بخواجه زاده وشمس الدين الشهير بخطيب زاده وخير الدين معلم السلطان وغيرهم ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية ولاه قضاءها ومات هناك سنة ٨٦٣ ثلاث وستين وثمانمائة هـ ، وله نظم العقائد يعرف بالقصيدة النونية ونظم آخر معروف بالتائية أدرج فيهما ما فى الكتب الضخام من علم الكلام وقد تلقى العلماء النونية بالقبول فدرسوها وعنوا بها وأظنها لم يكتب مثلها فيما بعد وقد شرحها أعز تلامذته شمس الدين احمد الخيالى ويقال انه ترجم كتاب المطالع الى اللغة الفارسية والترجمة =

الفتح فقد أقام فيها السلطان بايزيد الاول الملقب بيلديرم [= الصاعقة] قاضياً للفصل فى الخصومات التى تنشب بين المسلمين المقيمين بها ولكن هزيمته فى معركة أنقره وما أعقبها من اضطراب الامر فى الدولة وتنازع الامراء السلطنة أتاحت (للبيزنطيين) فرصة التخلص من القاضى المذكور .

وبعد خضر بك تولى قضاءها فى عهد الفاتح المولى خسرو(١) ثم خواجه

= موجودة فى مكتبة آياصوفيا . وهو الذى ابتكر التأريخ نظماً بحساب الجمل فقال : « جامع زيد عمر من عمره » تأريخاً لمسجد بناه الفاتح سنة ٨٥٠ هـ . وأما قبله فكانوا يؤرخون نثراً مثل كلمة «خراب» تأريخ لتخريب تيمورلنك مدينة سيواس بالاناضول سنة ٨٠٣ هـ ثلاث وثمانمائة و « بنيان محمد خان » تأريخ لحصن الروملى الذى بناه الفاتح على البسفور سنة ٨٥٦ هـ . ويقال انه حفيد من جهة البنت للفيلسوف نصر الدين خواجه [= جحا الرومى] المعروف بطرائفه ونكاته اللاذعة .

هذا : وأرخ السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وفاة صاحب الترجمة سنة ٨٦٠ هـ حيث قال : خضر بيك بن القاضى جلال الدين بن صدر الدين بن حاجى ابرهيم خير الدين الرومى الحنفى احد علماء الروم ومدرسيهم وأعيانهم ولد فى مستهل سنة ٨١٠ عشر وثمانمائة ونشأ فى مدينة بروسه وتفقه بالبرهان حيدر والفناري وبرع فى النحو والمعانى والبيان وصنف وأفاد ومن تصانيفه حواش على حاشية الكشاف للتفتازانى وارجوزة فى العروض وأخرى فى العقائد وقدم مكة سنة ٦٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة ومات سنة ستين وثمانمائة انتهى » الفوائد البهيه

(١) هو محمد بن فرامرز [فراموز] الشهير بالمولى خسرو — وفى رواية كان ابوه رجلا رومى الاصل او فرنسياً اعتنق الاسلام ولكنه كتب بخط يده فى ختام كتابه الدرر والغرر وكتابه المرقاة مانصه : « أنا الفقير محمد بن فرامرز بن على » وظن بعض المؤرخين أن « فرامرز » كلمة افرنجية وبنى على هذا الظن ان والده كان فرنسياً او روميا . والواقع ان الكلمة فارسية (*) واسم لابن رستم بن زال بن سام احد =

(*) اسم مركب من لفظين احدهما « فرا » بفتح الفاء وله معانى كثيرة منها الأخذ والآخر « مرز » بفتح الميم وسكون الراء من معانيه الارض والتخوم . ولعل معنى الاسم التركيبى قبل العلمية آخذ البلاد وفاتحها .

زاده(١) ، وابن مغنيسا(٢) . . . . . .

= الابطال الايرانيين القدماء ، ولركن الدين فرامرز والده كيقباد الثاني آخر ملوك سلاجقة قونية ـ مات والده وهو صغير فنشأ في حجر زوج اخته المسمى «خسروبك» احد الأمراء العثمانيين فعرف بأخي زوجة الامير خسرو ثم اختصر الاسم بكثرة الاستعمال فقيل خسرو . تلقى العلوم كلها من المولى برهان الدين حيدر الهروى من تلاميذ سعد الدين التفتازاني فعين مدرساً لمدرسة « شاه ملك » بأدرنه ثم قاضياً للعسكر، ولما توفي المولى خضر بك سنة ٨٦٣ ولاه السلطان محمد الفاتح قضاء استانبول مضافاً اليه قضاء غلطه واسكدار من ضواحي استانبول مع التدريس بمدرسة آياصوفيا. وكان يباشر قضاء استانبول بنفسه وقضاء غلطه واسكدار بواسطة نواب عنه . وبعد ذلك اسند اليه منصب الافتاء الرفيع . وكان بحراً زاخراً عالماً بالمعقول والمنقول جامعاً للفروع والاصول من تصانيفه الغرر وشرحه الدرر في الفقه ومرقاة الاصول وشرحه وحواشي المطول كتبها حين كان مدرساً بمدرسة شاه ملك وحواشي تفسير البيضاوي الى قوله تعالى سيقول السفهاء ورسالة في الولاء أبدع فيها الفوائد العجيبة .

وكان السلطان محمد الفاتح يجله ويفخر به قائلا « هو ابو حنيفة عهدي » وكان رحمه الله متخلقاً بخلق حسن متواضعا يقضي حوائجه بنفسه ، توفي سنة ٨٨٥ هـ ونقل جثمانه الطاهر الى مدينة بروسه ودفن بجوار مدرسته فيها

(١) ذكرت ترجمته في ص ٤٠

(٢) هو محي الدين محمد الشهير بابن مغنيسا قرأ على العلماء المعاصرين له ثم وصل الى استاذه المولى خسرو فنال بالغ تقديره كما ظفر بلفتة الفاتح بتزكية من استاذه فعينه مدرسا لمدرسة وزيره محمود باشا وكان قد تم انشاؤها وقد حضر اول درس ألقاه فيها — ويظهر انه كان عادة في ذاك الوقت — استاذه المولى خسرو وخطيب زاده وغيرهما من كبار العلماء فسمعوه الى آخر الدرس . ولما فرغ من إلقائه أظهر المولى خسرو اعجابه وتقديره قائلا : شهدت في ديار الروم درسين احدهما هذا الدرس =

والكستلانى(١) . . . . . .

=والآخر هو الدرس الأول الذى ألقاه محمدشاه الفنارى بمدرسة السلطانية . وقد تولى صاحب الترجمة التدريس فى عدة مدارس وقضاء العسكر وكان موفقا فى كل عمل تولاه وتخرج على يده مئات من الطلاب والتلاميذ .

(١) هو مصطفى مصلح الدين من قرية « كستل » التابعة لمركز (قضاء) « نازللى » فى ولاية « آيدين » بالاناضول. قرأ مبادىء العلوم فى آيدين ثم وصل الى خضر (بك) فأتم دراسته لديه فتزوج بنته وبذلك اتيحت له فرصة الاجتماع بمساعدى استاذه : الخيالى وخواجه زاده وكان محبا للمناظرة والنقاش وماهراً فى العلوم كلها . حكى المولى لطف الله التوقانى قال : كنت من طلبة المولى سنان باشا وكان وزيراً وكان من عادته دعوة العلماء ليالى العطلة واحضار الأطعمة النفيسة اللطيفة فاجتمعوا عنده ليلة وفيهم مصلح الدين الكستلانى وخواجه زاده وخطيب زاده وكان عندى زميل اتحادث معه فقلت فى أثناء الكلام : مرضت أنا فى وقت من الاوقات فعرقت الدم وانصبغت قميصى فضحك زميلى فتنبه العلماء لذلك وقالوا لم ضحكت فقال : لطف الله يقول كذا وكذا فضحك العلماء ايضا فقال الكستلانى مم تضحكون ؟ هذا مرض فلانى ذكره الشيخ الرئيس يعنى ابن سيناء فى الفصل الفلانى من القانون ، فقال خواجه زاده له طالعت القانون بتمامه ؟ فقال : نعم وجميع مصنفات ابن سيناء . ثم قال الكستلانى لخواجه زاده : أنت طالعت الشفاء بتمامه قال لا وانما طالعت مواضع الحاجة فقال الكستلانى : إنى طالعته بتمامه سبع مرات ، فتعجب الحاضرون من احاطته بالعلوم. وله حواش على شرح العقائد للتفتازانى وحواش على المقدمات الاربع التى فى التوضيح وتعليقات على المواقف وعلى حاشية العضد ورسالة فى القبلة . تولى التدريس بمدرسة « مدرنى » و « ديمتوقه » ثم فى احدى المدارس الثمان باستانبول ثم رقى الى منصب قضاء العسكر الرفيع . توفى سنة ٩٠١ هـ ودفن فى الموضع المسمى «ميت قويوسى » [بئر الميت] بجوار ضريح خالد بن ابى ايوب الانصارى .

والحاج حسن زاده افندى(١)

قضاة العسكر :

عندما نتكلم على المحاكم والقضاة يجب أن نضع قضاة العسكر فى الصف الأول فانهم أهم الأركان فى الأسرة القضائية وتشكيلات المحاكم .

وقد ذكرنا فيما تقدم إنشاء منصب قاضى القضاة فى عهد هارون الرشيد واسناده الى الامام ابى يوسف القاضى وبينا وظيفته واختصاصاته وكيف أن السلطة القضائية فصلت ، بانشاء هـذا المنصب ، من السلطات السياسية والادارية وأصبحت مؤسسة مستقلة وانه كان فى الدولة الاموية قاض باسم « قاضى الجماعة » .

ونذكر هنا أنه لم ينشأ فى الدولة العثمانية منصب قاضى القضاة كما لم يكن فيها قاضى العسكر الى عهد السلطان مراد الاول فكان قاضى العاصمة يصحب

---

(١) هو من باليكسر بالاناضول قرأ مبادئ العلوم على علماء عصره ثم وصل الى المولى يگان الآيدينى فأتم لديه وتولى التدريس بمدرسة « ديمتوقه » و« ملقره » . ثم عين قاضيا على « گليبولى » فأدى عمله بكفاءة ونزاهة وقد زكاه محمود باشا لدى محمد الفاتح فعينه مدرسا للمرادية فى بروسه ثم قاضيا لها وبعد ذلك انفصل من القضاء وأمر بالتدريس فى المدارس الثمان باستانبول وولى قضاءها وفى سنة ٨٨٦ هـ اى قبل وفاة الفاتح ترقى الى منصب قاضى عسكر الأناضول . ومن جملة مؤلفاته ميزان التصريف فى علم الصرف ، حاشية التوضيح ، غرائب اللغات شرع فى تأليفه بأمر السلطان ومات قبل اتمامه . حاشية على المقدمات الاربع ، وحاشية على تفسير البيضاوى على سورة الانعام. وكان يقول الشعر واسمه الشعرى «وحيد» و «جامى» توفى سنة ٩٦١ هـ باستانبول ودفن بجوار ضريح ابى ايوب الانصارى . ولتلميذه الممتاز احمد بن سيدى مؤلف قيم اسمه اسرار الفاقه .

الجيش فى غزواته قائما مقام قاضى القضاة ومؤديا وظيفة قاضى العسكر .

وفى عهد اورخان ثانى السلاطين العثمانية كان المولى خليل الاسود الجندرى قاضى «إزنيق» مرجعاً للقضـــاة والخطباء الذين يعينون فى المدن التابعة للدولة . وفى عهد السلطان مراد الاول سنة ٧٦٣ هـ كثرت صنوف الجند فكثرت شئونهم تبعا لكثرتهم فعين خليل الاسود الجندرى المذكور آنفا — وكان قاضى بروسه — قاضيا للعسكر .

ويؤخذ من بعض المصادر العربية أن مؤسسة قاضى العسكر قديمة فى الاسلام وكانت موجودة فى بعض الدول الاسلامية(١) .

والى اواخر عهد السلطان محمد الفاتح كان فى الدولة قاضى عسكر واحد ولكن فى آخر عهده أنشىء لقضاء العسكر منصبان احدهما باسم قضاء عسكر الروملى والآخر باسم قضاء عسكر الاناضول(٢) فاسند قضاء عسكر الروملى

---

(١) ومن جملة من ولى قضاء العسكر محمد بن عبدالرحمن بن ابى بكر البغدادى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ ولى قضاء العسكر وعاش ستين سنة وكان رأسا فى علم الكلام خبيراً بالتفسير وله كتاب فى الرد على اليهود وكتاب عمدة الادلة وكتاب التفسير . وقد استمر بعده هذا المنصب حتى وليه الخليل نجم الدين بن على بن الحسين بن على الملقب نجم الدين الحموى المتوفى سنة ٦٤١ هـ فولى قضاء العسكر للملك العادل ابى بكر ابن ايوب بعد الستمائة

(٢) وكان ذلك عقب فشل مسيح باشا فى فتح جزيرة رودس سنة ٨٨٥ هـ فعزله الفاتح من منصبه وعين مكانه المولى مغنيسا چلبى الذى كان يجمع فى يده قضاء عسكر الروملى وقضاء عسكر الاناضول . وابتداء من ذاك الوقت فصل القضاءان بعضهما من بعض وأصبح كل منهما منصباً مستقلا واستمر الامر كذلك الى أن فتح السلطان سليم الاول مقاطعة ديار بكر ومدينة حلب وما جاورها من المدن سنة ٩٢٠ هـ فأنشىء منصب ثالث باسم منصب قاضى عسكر بلاد العرب والعجم على أن يكون مركزه ديار بكر [= آمد] واسند هذا المنصب أول ما اسند الى المولى ادريس حكيم الدين البتليسى الذى له سعى مشكور وفضل كبير فى الحاق البلاد المذكورة بالمملكة العثمانية. وقد ألغى هذا المنصب أخيراً واكتفى بقضاء عسكر الاناضول .

الى المولى مصلح الدين الكستلانى وقضـــاء عسكر الاناضول الى الحاج حسن زاده .

وكانا [اى قاضى عسكر الروملى وقاضى عسكر الاناضول] اكبر الاركان فى التشكيلات القضائية فى الدولة ويصحبان الجيش اذا تولى السلطان قيادته أحدهما اذا كانت الحملة فى أوربا والآخر اذا كانت فى آسيا أو افريقيا وأهم شىء فى وظيفة قاضى العسكر أنه كان مستشاراً قانونياً للسلطان مع الاشراف على توزيع الغنائم والفصل فى الخصومات الناشبة بين أفراد الجيش والدعاوى الجنائية والمدنية التى ترفع من الاهالى ضد أحد ممن ينتمون الى الجيش(١) .

وأما توقيع العقوبات الخاصة بالمخالفات العسكرية فيذهب بنا الظن الى أنه لم يكن من اختصاص قاضى العسكر وانما كان ذلك من اختصاص السلطات العسكرية .

كانت رؤية الدعاوى التى تحدث بين الجمهور والدعاوى الخاصة بالاموال غير المنقولة من اختصاص القاضى المدنى المحلى دون قاضى العسكر(٢). هذا، وكان قضاة العسكر عندما يكونون فى العاصمة يقومون بعمل القاضى المدنى

---

(١) اذا كانت لزيد من الاهالى المدنيين دعوى شرعية ضد بعض افراد الجيش وأراد أن يرفع دعواه الى القاضى المحلى الموجود بالبلدة التى هم مرابطون فيها فهل للجندى الذى هو المدعى عليه أن يرفض التقاضى أمام القاضى المذكور ويطلب التقاضى أمام قاضى العسكر الموجود بالبلدة المذكورة ؟ نعم له ذلك .

فتاوى عبد الرحيم

(٢) قضاء قاضى العسكر لاينفذ فى العقار لانه فوض اليه القضاء فى أمور العسكر ولذلك يقضى فى المنقولات دون العقارات الا إذا نص على ذلك عند تقليده القضاء .

فتاوى الانقروى نقلا عن جواهر الفتاوى

ويعينون القضاة الذين يرسلون الى البلاد الاخرى — ما عدا استانبول والمدن المصطلح على تسميتها « مولويّت»(١) وكان هؤلاء القضاة المعينون من قبلهم يسمون نواباً وكان تفتيش أعمالهم وعزلهم من اختصاص قضاة العسكر .

واما النواب المعينون من قبل غيرهم — وكان يحدث ذلك فى حالات خاصة تستوجبه — فتفتيشهم وفصلهم من اختصاص القاضى الذى عينهم .

والى عهد « التنظيمات» اى أوائل عهد السلطان عبد المجيد الاول كان القضاة تابعين لقضاة العسكر ، وقضاة العسكر كانوا تابعين للصدر الاعظم [= الوزير الاكبر] وبعد « التنظيمات » أصبحوا تابعين للمشيخة الاسلامية .

الافتاء :

قلنا فيما تقدم إن الافتاء مؤسسة تساعد المحكمة على تحقيق العدل(٢) .

---

(١) « مولويت » كلمة مولدة معناها منصب ورتبة القاضى الكبير المسمى « ملاّ » مثل ملاّ مصر اى قاضى مصر وملاّ مكه اى قاضى مكه المكرمة وغيرها من الأقطار الكبيرة التى كانت تابعة للدولة العثمانية وتطلق كلمة « مولويت » على القطر نفسه كما تطلق على المنصب ؛ فيقال مثلا : « مكة مولويتدر» اى ان مكة قطر يتولى قضاءها قاض كبير من رتبة « ملا »

(٢) الافتاء فى الاصل حل مشكل وبيانه . وفى العرف الرد على سؤال عن حكم شرعى يقال أفتى المفتى بكذا اى أجاب على السؤال عن حكم شرعى بكذا ويسمى السائل المستفتى والمجيب المفتى والجواب الفتوى تجمع على فتاوى .

القضاء والافتاء مؤسستان مختلفتان لكل واحدة منهما إختصاص ليس للاخرى فالقضاء يستند الى ولاية عامة والافتاء مبنى على كفاءة علمية . يدرس القاضى القضية =

ونقول هنا : بدأ الفتيا مع الاسلام فقد أذن الرسول الاكرم فى حياته لبعض اصحابه الكرام بالفتيا ولكن العبء الاكبر والأهم من هذا العمل كان على عاتقه عليه الصلاة والسلام . ذكر البخارى فتاواه صلى الله عليه وسلم فى أبواب متفرقة من كتاب العلم . وقد تقدم الفتيا تقدماً ملحوظاً فى عهد كل من ابى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ولما كانت الفتيا مؤسسة علمية فلتحقيق الغاية المنشودة منها كان لا بد أن تسند الى شخص يستطيع القيام بهذه المهمة العلمية والا تسند الى اى شخص يتفق وجوده كيفما كان . فقد عنى بهذه النقطة عناية خاصة فى عهد الرسول وخلفائه الراشدين فلم يؤذن بالفتيا الا لمن كانت فيه الكفاءة .

واول من أذن له الرسول عليه الصلاة والسلام بالفتيا هو سيدنا ابو بكر رضى الله عنه ولم يكن يفتى أحد بمحضره غير ابى بكر وفى خلافة سيدنا عمر

= التى تعرض عليه ويصدر حكمه فيها بحسب ما يظهر له من الأدلة وحجاج الطرفين ولذلك قال عليه السلام : « إنكم تختصمون الى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه انما أقتطع له قطعة من النار » دل ذلك على أن القضاء يتبع الحجاج وقوة اللحن [= البيان] . وأما المفتى فيذكر حكم الشرع فى الحادثة حسبما يصفها المستفتى دون أن يدرسها ويحققها . ففتوى المفتى بيان علمى محض ليس له طابع الالزام وللمستفتى كامل الحرية فى القضية المتنازع فيها إن شاء أخذ بالفتوى وإن شاء لجأ الى القضاء .

وصفوة القول فى بيان الفرق بين القضاء والفتيا ان حكم القاضى ملزم لان عمله مبنى على ولاية عامة وفتوى المفتى غير ملزمة لان عمله مستند الى كفاءة علمية . وبعبارة اخرى : « حكم القاضى إنشاء وإلزام وفتوى المفتى بيان وتبليغ فالقاضى منشىء والمفتى مترجم »

الاحكام لشهاب الدين القرافى ص ٣٦

رضى الله عنه قام بالفتيا أمثال على وعثمان ومعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وابى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى هريرة وأبى الدرداء رضى الله عنهم ممن أذن لهم الخليفة بالفتيا . ومنع عمر من تصدون للفتيا بدون اذن منه .

وفى الدول الاسلامية التى قامت بعد الخلفاء الراشدين عين المفتون ليقوموا بحل المشاكل التى تحدث بين الجمهور وقد عملت الدولة العثمانية ايضاً منذ قيامها بهذه السنة الحسنة حيث عهد السلطان عثمان باني الدولة العثمانية أمر الفتيا الى حميه العالم الكبير والصوفى الجليل الشيخ « إدبالى » وبعد وفاته قام مقامه صهره الفقيه طورسون فى الفتيا والتدريس . ولم يكن يقوم بهذا العمل العلمى الخطير فى الدولة العثمانية اى عالم كائنا من كان فكان لا بد أن يؤذن له من الجهة المختصة : ومن أجل هذا كان المفتى سواء أكان فى العاصمة او البلاد التابعة لها يعين من مركز الحكومة ويعنى كل العناية بأن يختار للفتيا الاعلم والافقه والاروع من بين العلماء . وانا لندرك مبلغ هذه العناية بمجرد الاطلاع على تراجم العلماء الذين تولوا الفتيا فى مركز الحكومة او البلاد التابعة لها .

وكان مفتى العاصمة يسمى «مفتى الانام» واما البلاد والاقاليم فكان مفتوها يسمون « المفتى » فقط ثم لقب « مفتى الانام » بعنوان « شيخ الاسلام » واول من تولى منصب الافتاء بهذا العنوان الجليل هو المولى محمد شمس الدين الفنارى(١) فى عهد السلطان مراد الثانى .

---

(١) ولد سنة ٧٥١ هـ فى قرية « فنار » وقرأ على المولى علاء الدين الاسود والمولى جمال الدين الآقسرائى ولما سافر الى الحجاز لاداء فريضة الحج مر بمصر فاكرمه السلطان مؤيد واستفاد من علمائها فحضر دروس اكمل الدين البابرتى صاحب العناية شرح الهداية وكان من زملائه السيد الشريف الجرجانى ومحمود بدر الدين السماوى والحاج باشا الحكيم . ولما عاد الى بلاده ولى قضاء بروسه =

العلماء الذين تولوا منصب الافتاء ومشيخة الاسلام فى عهد السلطان محمد الفاتح :

فخر الدين العجمى(١) والمولى خسرو(٢) والمولى الكورانى(٣) .

ألفتيا مؤسسة اسلامية ونافعة جداً ليس لها مثيل فى أى دولة اخرى

= ودرس بمدرسة مناسترسنة ٨٢٨هـ وكان رحمه‌الله عالماً كبيراً وزاهداً ورعا وقدر فيه هـذه المزايا السلطان مراد الثانى فعطف عليه واختاره مستشاراً له . توفى سنة ٨٣٤ هـ ودفن فى بروسه وله مؤلفات قيمة منها «فصول البدايع فى اصول الشرايع» فى اصول الفقه ، وتفسير سورة الفاتحة ، انموذج العلوم . شرح السراجية فى الفرائض.

(١) فخر الدين العجمى من أشهر علماء عهد الفاتح اخذ العلم من السيد الشريف الجرجانى بايران ولما قدم البلاد العثمانية عين مساعداً (معيدا) بمدرسة بروسه واشتغل بالتدريس فى بعض المدارس ثم تولى الافتاء فى عهد السلطان مراد الثانى سنة ٨٣٤ هـ وكان رحمه الله زاهداً متقشفا فقد اراد السلطان مراد ان يزيد مرتبه فرفضه قائلا : « بيت المال حلال ولكن الزائد على الحاجة والكفاية ليس بحلال» وكان له باع طويل فى علم الحديث وقد كسب احترام الفاتح لما اتصف به من الاستقامة والكمالات العلمية والخلقية والصلابة الدينية . وله فضل مشكور فى القضاء على النزعة الحروفية التى ابتدعها المدعو فضل التبريزى وأخذ ينتشر فى البلاد العثمانية وكاد يميل اليها بعض الشخصيات البارزة فى الدولة . توفى سنة ٨٦٥ هـ ودفن فى مقبرة مسجد دار الحديث بأدرنه وقام بالفتيا زمنا طويلا يزيد على ثلاثين سنة .

(٢) سبقت ترجمته فى ص ١٠٢ ـ ١٠٣

(٣) هو شمس الدين احمد بن اسماعيل الكورانى ولد فى « كوران » أخذ العلم عن علماء مصر فأجازه ابن حجر العسقلانى ولما مر المولى بكان بمصر فى عودته =

ومجتمع آخر غير الدول الاسلامية والمجتمع الاسلامى والحاجة اليها ظاهرة ملحة فان الانسان الذى يعيش فى حالة الاجتماع يحدث مع اخيه الانسان شتى المناسبات وليس لكل شخص أن يعلم ـ ولو كان المفروض فيه العلم ـ أحكام هذه المناسبات حتى الذين يزعمون لأنفسهم معرفتها ولم يعد تعليمهم مرحلة الابتدائى ، لا يستطيعون أن يحددوا حكم كل معاملة كما أن الاحاطة بأحكام العبادات ليست سهلا ولا يشذ عما ذكرناه المسلمون الذين عنى دينهم بالعلم أكثر من أى دين آخر وخصه باسمى مكانة فى المجتمع الاسلامى حتى قرر فيما قرر من مبادئه مبدأ «ليس الجهل عذراً فى دار الاسلام» وحرص على تطبيقه كل

=من الحجاز لقى صاحب الترجمة فاعجب بعلمه فأخذه معه الى عاصمة الدولة العثمانية. ولما قابل السلطان مراد الثانى قال له : هل أتيت الينا بهدية من الحجاز ؟ قال نعم ، معى رجل فاضل عالم كامل فقيه مفسر محدث بارع فى العلوم . قال : أين هو ، قال بالباب ، فأرسل اليه السلطان فدخل عليه وسلم وتحدث معه ساعة فرأى فضله واعطاه مدرسة جده السلطان مراد الاول فى بروسه ثم جعله معلما لولده الامير محمد [السلطان محمد الفاتح] ولما أصبح الامير سلطانا اكرم استاذه غاية الاكرام حتى عرض عليه الوزارة فاعتذر عن عدم قبولها وانما قبل قضاء العسكر سنة ٨٥٥ هـ وقام بأعباء منصبه بنزاهة وكفاءة وصلابة لا تعرف اللين وقد فترت الصلة بينه وبين السلطان محمد الفاتح بعض مدة فرحل المترجم له الى مصر ورحب به سلطانها السلطان قايتباى وبالغ فى اكرامه ثم لم يلبث أن رضى عنه الفاتح فدعاه الى استانبول مرة اخرى فأجاب الدعوة وقلده قضاء بروسه سنة ٨٦٢ هـ ثم الفتيا سنة ٨٨٥ هـ وتوفى الى رحمة الله سنة ٨٩٣ هـ فحضر السلطان جنازته تنفيذاً لوصيته . ومن مؤلفاته : « غاية الامانى فى تفسير السبع المثانى » و « الكوثر الجارى على رياض البخارى » وكان رحمه الله يصدر فتاواه بقوله : الله الهادى عليه اعتمادى » ويضع جملة «العلم عنده» بدل « الله اعلم » قبل الجواب . كما يؤخذ ذلك من النماذج الموجودة فى « علمیه سالنا مه سی » [= دليل المعاهد الدينية لسنة ١٣٣٤ هـ]

الحرص كدستور لا يتغير ، فانهم ، مثل غيرهم ، حاجتهم ظاهرة وماسة الى معرفة الاحكام المشار اليها من يعرفونها وليس فى الاستطاعة سد هذه الحاجة بوساطة القضاء . فان القضاة مع عدم اشتغالهم بالمسائل الخاصة بالعبادات فليس من صالح الحكومات ولا الافراد أن يقال لهم فى قضايا المعاملات : « دونكم المحكمة » فإن هذه الطريقة تؤدى بالمجتمع الى حالة خطرة ضارة جداً يعسر علاجها لا سيما فى بيئة إدارية تنشر العدالة بالمال . وفى العهود التى كان للفتيا مكانها ومكانتها فى الدولة والمجتمع كان المتنازعون فى قضية يرجعون الى المفتى ومنه يعلمون حكمها وبموجبه يحلون مشكلهم فيما بينهم . وكان من النادر أن يرجع شخص الى المحكمة ويتحمل المصاريف التى هو احوج اليها اذا اقتنع بخطئه واكثر الذين كانوا يلجأون الى المحكمة هم الذين كانوا يظنون أنهم على حق . ولهذه الاسباب كان الرجوع الى المحاكم لا يقع إلا فى القليل النادر . ولا شك أن ما كان عليه الافراد من حسن الخلق وأخذهم بمبدأ الاعتراف بالحق لها أثر كبير فى ذلك .

وصفوة القول : أن المفتيين كانوا يعملون على احقاق الحق وتحقيق العدالة فى الظروف والملابسات التى ذكرناها والحاجة ماسة الى إحياء هذه المؤسسة فى وقتنا الحاضر . فلنفرض أن شخصاً وقع أمام حادث من حوادث المجتمع لا يعرف حكمه أو أن هناك قضية ميراث او وقف لا يدرى حكمها ايضاً فالى من يرجع هذا الشخص لمعرفة الحكم ؟ ومن يعرفه ؟ نعم فى الامكان أن يعرفه من استاذ فى الفقه والقانون أو محام ولكن فى مقابل جعل كبير وليس فى استطاعة الجمهور الذى معظمه فقراء أن يدفع الجعل المطلوب مع العلم بأن المفتيين كانوا يجيبون هذه الاسئلة بدون مقابل وكان المهم تنشئة مفتيين فى مستوى من العلم والخلق يبعث الى النفوس الثقة والاطمئنان . وفى عهد الفاتح وما وليه من العهود تحقق هذا المهم حيث نشأ مفتون يوثق بهم من جميع الوجوه .